تعليم التخطيط من مفهوم الواقع العربي

د. رياض النقيب ●

مقـــــدمة

ان ما يعرف الان بالعالم العربي أو الشرق الادنى ليس غريبا عن التقاليد العمرانية ولا تنقصه هذه التقاليد . وفي الواقع فان هذه المنطقة الجغرافية هي مهد ليس لاقدم الحضارات مثل الحضارة المصرية ، حضارة ما بين النهرين والحضارة الفينيقية والاسلامية فقط ... بل ان الحضارات الحبشة واليونانية والتركية والغربية تركت آثارا لا تمحى على معالمها . وقد دعيت هذه المنطقة من قبل العديد من المؤرخين « مهد » الحضارة الانسانية وهي غنية بالمدن وتقاليد المدن .

وجدير بالذكر ان ابن خلدون العربي كان أول عالم اجتماعي يعالج المدينة وبنيتها ومشاكلها الاجتماعية بالاضافة الى نواحيها السكانية بطريقة علمية . ولعله أول عمراني تطرق لعلم الاجتماع وجغرافية المدن بالمعنى المعاصر . وتعتبر « المقدمة » عملا هاما في التصنيف العمراني والبيئة العمرانية .

وللمدينة العربية طابعها الخاص كالمدينة الاوروبية في العصور الوسطى ولقد تراجع هذا الطابع أسوة بمدينة القرون الوسطى أمام قوى التوسع في الثلاثين أو أربعين سنة الماضية .

ولسوء الحظ فان الانسان العربي اليوم لم يستوح تراثه في توسيع مدينه لاعطائها وحدة وشخصية . ولكن وقوع المدينة العربية عرضة لتاثيرات السياسة والاستعمار والنفط والتجارة فقط أصبحت المدينة العربية ضحية للقوى الاجتماعية والاقتصادية المقترنة بالمضاربة والاستغلال من الداخل والخارج وتقهقرت أمام المدينة النموذجية للسيارات ، فبدلا من الانسجام والتناغم لا يوجد اليوم الا مجموعات وتراكمات مختلفة للابنية والسيارات والناس .

لقد تركت المدينة العربية تنمو وتنتشر بسرعة وذلك على حساب تدمير مظاهرها المميزة الهامة . وتمثل بيروت وبغداد والكويت الازمات المعاصرة في مجال التخطيط والهندسة المعمارية والازمة الثقافية التي تواجهها المدينة العربية اليوم . لقد أسيء فهم الثقافة بصورة عامة وجعلت تستسلم لمفهوم مغلوط للحضارة . لقد كان يجب أن يتعلم العرب من التجارب المريرة التي تعرضت لها العمرنة الغربية بعض الدروس القيمة لكن هذه التجارب لم تحظ باهتمام بناة العمرنة العربية .

ومن الاسباب الرئيسية التي أثرت على نمو معظم المدن العربية وبالتالي كان لها تاثير عكسي بحيث أنها أعاقت نمو المدن الاخـــرى :

١ ــ لقد أدت القومية الى استقلال البلاد العربية وكان لا بد من اعداد تطوير العواصم كمراكز للحكومة والادارة والتمثيل الدبلوماسي والتجارة ولكن على حساب المدن الاخرى .

٢ ــ التوسع العمراني بعد اكتشاف الموارد البترولية مما أدى الى توسع عمراني لا مثيل له في السعودية وليبيا والكويت والعراق ومنطقة الخليج ككل .

٣ ــ سرعة تدفق الاموال من دول النفط الى الدول العربية الاخرى المستفيدة مما أدى الى تاثير مباشر على سرعة نمو مدن البلدان المستفيدة .

٤ ــ مشكلة اللاجئين بعد استعمار فلسطين وتشريد أكثر من مليون من سكانها الى المناطق المجاورة .

٥ ــ أن النمو العمراني في الدول العربية لا يسير وفقا للانماط المحلية بل وفقا لديناميكية المقتضيات السياسية .

٦ ــ الهجرة الواسعة من الارياف الى المدن وذلك بسبب اهمال الريف والمناطق الزراعية . والى آخره من الاسباب .

● عميد كلية الهندسة والبترول ــ جامعة الكويت

ان شكل وبنية المدينة العربية في المستقبل اذا ما بقي بعيدا عن مؤثرات التخطيط العلمي والشامل ليس بالامر المبهج . ولا بد من أنّ نصحو لندرك أن مدينة المستقبل العربية تحتاج الى الابداع المرهف والجراة والعلم والفن لتوجيه تطورها . وهذا النوع من التوجيه والارشاد سوف يتصدى عندئذ للحتميات الجغرافية والطبوغرافية والفلسفية والايكولوجية .

ان سرعة التطور والتنمية التكنولوجية التي يمر بها الانسان المعاصر تفوق حدود تخيلاته وامكانياته لمعالجة المشاكل التي نتج من جراء هذه السرعة وان الحقبة الزمنية التي نعيشها الان تعتبر بدون مبالغة أهم حقبة في تاريخ البشرية على الاطلاق . ويمكن اظهار ذلك اذا قسمنا « الخمسين ألف » عام الماضية الى أجيال طول كل جيل منها « اثنان وستون عاما » تتكون مجموعة الاجيال التي عاشت الى حد الان هي (ثمانمائة جيل) . عاش منها الانسان (ستمائه وخمسون جيلا) في الكهوف . وفقط خلال (سبعين جيلا) بعد ذلك استطاع الانسان أن يجد طريقه للتفاهم بها (كالكتابة) . وفقط خلال (الستين جيلا) الماضي استطاع الانسان أن يرى (كلمة مطبوعة) وفقط خلال الاربعة أجيال الماضية استطاع الانسان أن يقيس وقته بدقة وفقط خلال الجيلين المنصرمين استطاع أن يستخدم الانسان بها المحرك الكهربائي وكل الاكتشافات والاختراعات الاخرى التي نعرفها اليوم وجدت خلال هذا الجيل المعاصر .

بل ان (٩٠٪) تسعين بالمئة من جميع علماء الحضارة الانسانية لا زالوا على قيد الحياة يحدثون التطور والتغير بصورة مذهلة ومثيرة . (١)

ولا بد هنا من التساؤل مره أخرى . هل الانسان العربي مستعد لمجابهة مثل هذا التطور والتحرك بالمستوى الذي يعيشه الان ؟ الاجابة مع مزيد الاسف كلا . أن التطور والتحرك لا يستطاع شرائه بالثروات المتدفقة على هذه المنطقه من الدول الاجنبية . بل لا بد من ايجاد قاعدة تعليمية لتقبل مثل هذه التطورات التكنولوجية .

وبما أن هذا الامر يستهلك الكلام فيه فأود أن أخصص كلامي عن التطور المديني والعمراني حيث هو مجال اختصاصي .

يهدف التخطيط في كل أشكاله الى زيادة رفاهيه الامة . ونحن جميعا نقول بانه يجب أن نخطط للانسان . لذا فالانسان يجب أن يكون نقطه الانطلاق وبعض النظر عن نوع التخطيط الذي نمارسه فان كل أنواع التخطيط تتشابك لتكيف بيئة الانسان ولتزيد من رفاهيته .

هنالك سببان هامان يدعوان البلدان العربية لتقوية نشاطاتها في ميدان تخطيط المدن والاقاليم . أولا : أن البلدان العربية تسير نحو التحديث بسرعة فائقة تفوق معرفتها لتطبيق حركة التخطيط اللازمة . ثانيا : أن معظم البلدان العربيه تنفق الكثير على الاساس الهيكلي (Infra Structure) ، وبالرغم من أن الدفق المستمر للخبره الفنية أمر أساسي لنجاح التخطيط من أجل التنمية . غير أن النجاح المرتجى في هذا المجال لن يتحقق الا عندما يدرب المخططون في بيئة وطنهم التي كفت لسد حاجات واقعهم الاجتماعي ــ الاقتصادي والثقافي والسياسي .

ان التقدم التخطيطي الشامل والسليم في العالم العربي أمر ملح . فالجامعات العربية لا تكاد تعرف شيئا عن هذا المضمار . ان عالمنا العربي الذي يشتمل على حوالي ١٥٠ مليون نسمة وينضم مساحة تقارب ٩ ملايين ميلا مربعا ، يمتد من الخليج العربي الى شمال أفريقيا على طول البحر الابيض المتوسط ، ان هذا العالم يحتاج الى أكثر من الحلول المؤقته التي يقدمها المستشارون الدوليون الذين لا بد لخبرتهم بالمعضلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يعاني منها الشعب العربي من أن تكون محدودة . اننا نعيش في فتره حاسمة . ان على المؤسسات التعليمية في العالم العربي واجبا هاما في اعداد المخططين من أبنائه كميا وكيفيا وفي تطوير برنامج تعليمي سليم يتناسب مع واقعه .

ان الدور الرئيسي لتخطيط المدن والاقاليم هو تحسين فعالية عملية التحديث كدافع للتطور الاقتصادي والوصول الى التقانة العصرية اللازمة لها . ففي هذا الاطار نجد أن دور أخصائي التخطيط يجب أن يكون مبدعا أكثر من أي وقت آخر في العالم العربي . وهذا يبرر الحاجة الى طريقة تربوية ترى بوضوح الدور الخلاق الذي يتطلب من أخصائي التخطيط ضمن الاطار العام للبلدان العربية .

! Alvin Toffler, **"Future Shock"** (New York: Random House Inc., 1970) P. 12-14

من أجل تدارك قلة الفنيين يتوجب على البلدان العربية أن تختار سياسة متوازنة من بين عدة استراتيجيات . ان ايفاد طلابهم الى الخارج والاستفادة من خدمات المخططين الاجانب استراتيجية تكلف كثيرا ، وكثيرا ما تكون غير مجدية اذا ما قورنت باستراتيجيات البلاد النامية الاخرى التي قامت بتدريب أبنائها في معاهد محلية للتخطيط . وفي هذا البحث القصير سيحاول المؤلف التعريف بضرورة التخطيط ، ليس كوظيفة حكومية فحسب ، بل كموضوع للدراسة بسبناه الجامعات العربية لاعداد المخططين من أبنائها .

في هذا الاستعراض سنؤكد على تطور مفهوم التثقيف التخطيطي في الولايات المتحدة الامريكية . وسبب ذلك بسيط . اذ أن حوالي ٩٠٪ من مخططي البلدان العربية القلائل والبلدان النامية يتلقون تعليمهم الرسمي في الولايات المتحدة الامريكية . ان الوضع المتغير لهذه المهنة وعملية اعادة النظر المستمرة فيها يبدو أن أكثر وضوحا وديناميكية منهما في أي بلد منطور آخر . وأخيرا بما أن التثقيف التخطيطي يكاد لا يكون معروفا في العالم العربي . فان الولايات المتحدة لعبت بالفعل دورا هاما عن طريق ارسال الخبراء وتدريب معظم المخططين من البلاد العربية والبلاد النامية . لهذه الاسباب سنستعرض هذا الموضوع ونتناوله بالتقويم ، وحيثما تسنح الفرصة ، نجعله يمت الى ظروفنا بصلة وثيقة .

تخطيط المدن والاقاليم كعلم :

ان تخطيط المدن قديم قدم الحضارة المدنية . ولقد نشأت مهنة التخطيط الحالية استجابة للنمو السريع والتغير المستمر والمشاكل العويصة الناجمة عن التطور المديني في القرن العشرين . ومن خلال هذه النشأة اكتسب التخطيط مجموعة من الاساليب والطرق المتميزة ، واكتسبت نظرته الشاملة لحياة المدن ومشاكلها واكتسب أخلاقيته المهنية وأيديولوجيته المسيرة له . وبعد أن أصبح تخطيط المدن مؤسسة رسمية في الحكومة المدينية ازداد التصاق مخططي المدن في وظائف الحكومة الواسعة ، مثل تأمين الخدمات الاجتماعية واعداد ميزانيات العواصم وبرامج الاسكان . وكان من جراء هذا التفاعل أن تغيرت أساليب التخطيط مباشرة ، عن طريق اشراك ممارسي عمل التخطيط في تلك الاعمال . وهكذا فان توطد التخطيط بصورة رسمية وخاصة في الحكومة المحلية قد أثر على تطور هذا العالم .

وكذلك فان تخطيط المدن ، بدوره ، قد أدى الى تطوير أعمال التخطيط في فروع الحكومة الاخرى وفي المشاريع الخاصة . فالخريجون المختصون ببرامج تخطيط المدن والاقاليم يعملون في المدن والجامعات وفي القطاع الخاص .. الخ . ومؤهلاتهم تجعلهم يعملون كمستشارين ومحللين ومتنبئين يضعون البرامج والمخططات ويقومون بالاعمال الادارية الحكومية .. الخ . ومن أجل الاعداد للقيام بمثل هذه المهمات يتوجب على المخطط في المستقبل أن يمارس أسلوبا صعبا في استراتيجيته وأن يمارس عملية اطلاق احكام القيمة وأن يوسع قدرته المهنية بحيث تتجاوز حل المشكلات الى تحديد القضايا الرئيسية وأن يطور قدرته على تصور الامور بالاستناد الى معرفة واسعة .

تعريف مفهوم تخطيط المدن والاقاليم :

ان « التخطيط » مصطلح مبهم غارق في العموميات وخاضع لادعاءات مبالغ فيها . ونتيجة لاستعمال هذا المصطلح الى حد بعيد بطريقة تعوزها الدقة فان هذا المصطلح محاط بالغموض من حيث التخطيط هو نفسه عملية متميزة او كمجرد ناحية أو مظهر كل نوع من أنواع النشاط . (٢)

بالاستناد الى بعض المفاهيم التي كثيرا ما يستعملها علماء التخطيط النظريون ، يمكن تحديد « التخطيط » بانه عملية مستمرة وعقلانية تتوخى المستقبل وكطريقة لصياغة سياسات عقلانية وتنفيذها بقصد تحقيق هدف مخطط له . وبما أن التخطيط لا يجري أبدا في الفراغ فان هذا المفهوم العام ليس له معنى عمليا الا اذا نظر اليه ضمن اطار عملية او نظام محددين مثل عملية تخطيط المدن والاقاليم .

يبدو مفهوم « تخطيط المدن والاقاليم » محاطا بشيء من الالتباس ، وكثيرا ما وصفت حالة الالتباس في الكتابات الاختصاصية . ويرى البعض الحالة الراهنة على أنها علامة تشير الى ميدان في طور النمو . ويرى

2/ Journal of the American Institute of Planners, 18:1 (Winter 1952) 2-3.

آخرون أنها مهنة متقدمة غير ثابتة ومتعددة الوجوه ، حتى أطلق عليها البعض اسم Schizophrenia حالة متقدمة من انفصام الشخصية المتعددة . (٣)

ويمكن تبرير هذا الوضع بأن نقول أن التغييرات التكنولوجية والثقافية لم تصاغ نظريا بالسرعة التي حدثت بها . فبالنظر لانعدام وجود أساس نظري فقد تطور التخطيط بطريقة عملية . وكما يرى ميرد وديوك فان هذا التطور لا يقتصر على التخطيط وحده :

« هناك وقت يمر فيه تطور كل علم من العلوم بمرحلة ينمو فيها وسطه الطبيعي والمظاهر التي يعالجها العاملون في هذا العلم ، فتتعقد وتزداد مسؤولياتها وتتكاثر الى حد يفوق امكانية احتوائها . هذا الوقت يمر به المخططون حاليا . (٤)

والمشكلة تشير الى الحاجة لزيادة فهم المجموعات البشرية ومعرفتها من أجل تعميق الاسس النظرية لتخطيط المدن والاقاليم . ولقد قام عدد من الباحثين في السنوات الاخيرة بدراسة عمليات تخطيط المدن والاقاليم ومنهم ميرد وبيرد فريدمان وبنفيلد وغيرهم . وبالرغم من تأثر نظرتهم فان آرائهم مجزأة لدرجة أنها لا تحتوي على نظرية مركبة لتطور (تخطيط) المدن والاقاليم ويبقى التعريف الشامل لتخطيط المدن والاقاليم غير موجود .

يبدو أن الاهتمام تركز حديثا على اطلاق المفهوم العام « للتخطيط » على تطوير المدن والاقاليم . وهذا يثير الاسئلة التالية : هل التخطيط عملية مستمرة أم هو فكرة سابقة مستمرة تتعلق بأحداث يرتجى حدوثها في المستقبل ؟ وهل يحدد المخطط الاهداف أم أنه يقبلها كما هي ؟ وما هو دوره في عملية اتخاذ القرارات ؟ هل يسعى لتحسين البيئة الاجتماعية أم البيئة الطبيعية أم كليهما ؟ وما هو بالضبط مجاله المحصور به ؟ تلك هي قضايا الساعة التي يعالجها العاملون في التخطيط . ويبدو في الوقت الحاضر أن التعريف أنف الذكر التخطيط بحيث يتمركز على النـــاحية الطبيعية . وبالرغم من أن هذا التركيز يبدو محددا فانه يغـــــلق

هذا ولا يعرف معهد التخطيط الامريكي تخطيط المدن والاقاليم . بل يجمل موقفه كما يلي :

« أن التخطيط الذي يهتم به المعهد هو التطوير الموحد بسكان المدن وبنائهم

3/ John F. Kain, "Rampant Schizophrenia : **A Case of City and Regional Planning," Journal of the American Institute of Planners,** 32:1 (January 1966) 3.

4/ Richard L. Meir an Richard D. Duke, "Gaming Simulatdion for Urban Planning," **Journal of the American Institute of Planners,** 32.1 (January 1966) 3.

والولاية والاقاليم والامة كما عبر عنه تحديد الترتيب الشامل لاستعمالات الارض وشغل الارض وأنظمتها . » (٥)

ان هذا التخطيط ضيق . فهو يتجاهل ما يحدث بالفعل اليوم ضمن اطار التخطيط . فهو يضيق مجال التخطيط بحيث يتمركز على الناحية الطبيعية . وبالرغم من أن هذا التركيز يبدو محددا فانه يغلق فى وجه التخطيط الاهتمامات الاجتماعية والاقتصادية الناشئة .

ان تعريف تخطيط المدن والاقاليم يجب أن يأخذ بعين الاعتبار الاتجاهات الحديثة ، والمشكلات الجديدة التي يتعرض لها المخططون بصورة متزايدة . وبهذا الخصوص فقد لاحظ هاريس أن التمييز التقليدي حسب المناطق يحتمي تدريجيا ليحل مكانه المعالجة المباشرة الشاملة لمجموعات المشاكل (مثل مزيج الدخان والضباب والفقر والبطالة و... الازدحام) . (٦)

عندما نعرض مهنة ما لتغير مستمر فما هي المعايير التي يجب أن نوجه اختيار تعريفها فى دراسة تمتد عبر مدة من الزمن ؟

ان الانسجام وعدم التناقض الداخلي يتطلب أن يبنى الوضع الذي كان سائدا أثناء القسم الاعظم للفترة موضوع الدراسة . فمن هذه الناحية ، وباستثناء القسم الاخير من الستينات التي تميزت بالاهتمام بالسياسة الاجتماعية فان مهنة التخطيط ، على الاقل في أمريكا الشمالية ، تعمل بالاستناد الى المقالة التي احتوى عليها تعريف معهد التخطيط الامريكي المذكور آنفا .

تطور عملية اعداد تخطيط المدن والاقاليم فى أمريكا الشمالية :

جرت فى السنوات الخمس عشرة الاخيرة دراسة حالة الاعداد المهني للتخطيط وكتب عنها الكثيرون وأخص منهم بالذكر آدمز وبرلوف في الولايات المتحدة الامريكية وباركر وويلز في كندا وميولينج فى أمريكا اللاتينية وميل فى الهند وشوبسنر وترافيس فى انجلترا ودودى والاتحاد الدولى للعالم كله(٧) . ولقد أعطت كتابات هؤلاء معلومات قيمة حول نقاط التشابه والاختلاف فى طرق الاعداد المهني للتخطيط في مختلف البلدان وحول كثير من القضايا المحيطة بها .

ان التعميم الذي يستند الى نظرة مقطعية أمر صعب ولكنه يوحي بالشيء الكثير . فاذا نظرنا الى تطور الاعداد المهني للتخطيط من وجهة نظر التأكيد المتناقص على المظاهر الطبيعية ذات الابعاد الثلاثة فان القسم الاكبر من الاعداد المهني للتخطيط فى العالم يقع على الجبهة اليسرى فى حين أن معظم برامج أمريكا الشمالية ستكون الى يمين برامج بقية أنحاء العالم . وهذا قد لا يعني أن أمريكا الشمالية في المقدمة فيما يتعلق بالتأكيد على النواحي الاجتماعية — والاقتصادية . وهذا يعني أن التثقيف التخطيطي يتأثر بصورة متزايدة وبدرجات متعاونة بالحاجة الى تحسين الشروط الاجتماعية للمجتمع بدلا من الحاجة الى تحسين البيئة الطبيعية وحدها .

يتأثر التخطيط في كل مكان بمستوى التحديث والتغيرات التكنولوجية والاجتماعية وبالقضايا الرئيسية فى فترة ما . هذه العوامل تتغير مع الزمن ولا تزال عملية التثقيف تتبنى هذه التغيرات فى نظام التعليم والتعلم . وتطور عملية التثقيف من حيث اتساع مجالها والتغيرات فى أسلوبها بواسطة عمليات التكيف تلك . ويمكن توضيح ذلك بأن نربط بين تطور التخطيط فى أمريكا الشمالية وبين تطور عملية التثقيف التخطيطي نفسها .

5/ This statement appears on the back cover of each issue of **The Journal of the American Institute of Planners.**

6/ Britton Harris, "Some Problems in the Theory of Intra-Urban Location," **Journal of Operation Research,** 9 (September-October, 1961) 695-721.

7/ Francis Violich, "Planning in South America: Status of Educators", **Journal of American Institute of Planners,** 23:3 (1957) 119-125.

أولا ــ حركات المدينة الجميلة والمدينة العملية :

في الفترة التي تلت الحرب العالمية الاولى مباشرة برزت مظاهرة مزعجة للتحديث على المسرح الاوربي والامريكي . فقد أصبحت البيئة الطبيعية القبيحة من حيث التسهيلات الاسكانية العامة من حيث المناطق الصناعية الشغل الشاغل للتنظيم المدني وخصوصا في الولايات المتحدة الامريكية حيث كان التركيز على المظهر الخارجي على تجميع المدينة . واستجابة لهذه المشاكل سنت قوانين في العشرينات . وطورت المراكز البلدية والحدائق العامة ومناطق الترفيه . ولقد أبرز تبني مفهوم هوارد لمدينة الحدائق (من بريطانيا العظمى) في مجتمع ردبورن اهتمام الهيئات البلدية بالنواحي الجمالية المرئية للمدينة .

وفي أواخر العشرينات ازداد الطلب على الخدمات العامة وعلى القاعدة الاقتصادية للمدينة . ولقد شعر مجتمع المدينة الجميلة بالحاجة الى عمل المدينة الفعال . غير أن مهنة تخطيط المدن كان يسيطر عليهـا المهندسون المعماريون والمهندسون المدنيون والمهندسون (المساحون) . وهم الذين قدموا الارشادات الاولى وطوروا تخطيط المدن ليصبح ميدانا جديدا .

كانت استجابة المؤسسات للمشاكل خلال مرحلة « المدينة الجميلة والمدينة العملية » استجابة فعالة . ففي الفترة الواقعة بين ١٩١٠ ، ١٩٣٠ أدخلت ٣٣ جامعة ٥٥ مقررا قام بتدريسها ٤٨ أستاذا . ولقد أدخلت هذه المقررات كجزء من مناهج الهندسة المعمارية والهندسة المدنية . (٨) وكان يفترض أن المهندس المعماري أو المهندس المدني الذي يدرس مقررا في التخطيط يمكنه أن يعمل في المستقبل كمخطط محترف للمدن . ولقد كان لجامعة هارفرد دور رائد في ابعاد هذا المنطق المحدود جدا وكانت أول جامعة تنظم برنامجا مستقلا في تخطيط المدن في عام ١٩٣٣ واعترفت أيضا بقيمة مواضيع الميادين الاخرى لاغناء ميدان تخطيط المدن المهني .

كانت الفترة بين ١٩٠٠ ، ١٩٣٠ فترة رائدة بالنظر لاثرها الذي تركته على المهنة وعلى عملية الاعداد المهني للتخطيط .

ثانيا ــ مرحلة ما بعد التدهور الاقتصادي :

لقد نقل التدهور الاقتصادي الذي حدث في الثلاثينات اهتمام الهيئات البلدية من مظاهر المدنية المرئية الى القضايا الاقتصادية . فقد أخذت الحكومات المحلية تخطط مدنها وتديرها . فأصبحت المدينة ينظر اليها في اطار اقليمي أوسع . وجاء تشجيع خاص في هذا الاتجاه من مجلس تخطيط الموارد الوطنية الذي شكل عام ١٩٣٣ .

لم يقدم التدهور الاقتصادي والحرب الاسباب لفتح مدارس تخطيط مهنية ولكنهما خلقا مواضيع جديدة أدت الى اعادة النظر في المناهج القائمة . وبرز اهتمام جديد بقضايا السياسة الاقليمية والعامة . وهكذا يقول جون. م. جاوس بعد أن قام بدراسة لمدارس التخطيط في عام ١٩٤٥ :

> « ..... ان تطور مشاكلنا والتغيرات في مؤسساتنا وبيئتنا ورد الفعل الذي حدث بعد فترة التدهور الاقتصادي والحرب ــ لعل هذه هي الاسباب الرئيسية ولقد كانت العوامل ذاتها نشطة في أنحاء العالم ، ولذا فان التجارب الاجنبية منشطة في المستقبل . » (٩)

الا أن هناك تناقض ظاهري ، اذ أنه في حين أن الظروف الاجتماعية كانت مسلما بها في هذه الفترة فان التخطيط الاجتماعي لم يكن مقررا جامعيا حتى اضاح برنامج جامعي للتخطيط عام ١٩٤٨ ، حيث اكد تأكيدا كبيرا على الاسس النظرية للتخطيط ومبادئه وطرقه المستقاة من العلوم الاجتماعية .

8/ Fredrich J. Adams and Gerald Hodge. "City Planning Instruction in the United States: The Pioneering Years (1900-1930)", **Journal of the American Institute of** Planners, 31:1 (February 1965) 43-51.

9/ John M. Gaus, "Education of Planners: A commentary on Some Projects," **Journal of Land Public Utility Economics,** 21:4 (November 1945) 307.

ثالثا ــ التطــور المعــاصر :

عندما أدركت حكومة الولايات المتحدة أن برامج الاسكان العام وبحسبنات العاصمة في الاربعينات لم تكن مناسبة الى حد كاف مع مجموعة المشاكل المدينية أخذت تشجع مبني التخطيط الشامل فمثلا جعل مرسوم الاسكان الوطني للولايات المتحدة الصادر في عام ١٩٥٤ مخطط الجماعات « الشامل » شيئا اجباريا لكي تستفيد من المعونة الفدرالية في مشاريع تجديد المدن .

وقد دعمت برامج التطور المرابطة بدراسة اجتماعية ــ اقتصاديه . وحدث ذلك نتيجة للحاجة التي شعر بها المخططون لتنسيق برامج مختلف الوكالات الوظيفية والاجتماعية ... مجلس المدرسة ومجالس الحدائق ودوائر الطرقات ... ضمن اطار للتنمية .

وهكذا فقد وجه الاعداد المهني للتخطيط انتباهه الى هذا النوع من المعرفة المبنية على البحث العلمي في التطوير المرابط في السنوات الخمس عشرة الاخيرة . غير أن مهنة التخطيط تواجه بعض المشاكل : كيف توجه القوى الاجتماعية ــ الاقتصادية نحو نموذج واقعي للتطوير ؟ هل نعالج القضايا الراهنة المتعلقة بالفقر والتدهور العمراني « على التبيؤ » على حدة ضمن اطار نظام واحد ؟ أم هل يجري ابداع اطار عام تعالج فيه هذه القضايا ضمن اطار شامل أو اجتماعي ؟ ما هو دور مخططي المدن والاقاليم في هذا الاطار المتغير ؟ مثل هذه الاسئلة موضع أخذ ورد بين المخططين .

هذه التطورات تبين أن تخطيط المدن والاقاليم المهني في حالة من التبدل الدائم . ومع ذلك تبقى الحاجة الى التخطيط والمخططين ماسة وملحة . وتتحدث الجمعية الامريكية للمخططين عن وجود ثغرة بين العرض والطلب فيما يتعلق بالمخططين المختصين .

هنالك حركة هامة في العشرين سنة الاخيرة نشأت نتيجة لاضافة البعد الدولي المتزايد الى برامج التعليم في الكثير من مدارس التخطيط المهنية . وهذا نتيجة لاهتمام كل من كندا والولايات المتحدة الامريكية في تطوير اقتصاد الدول النامية في أنحاء العالم . (١٠) وقد ساهم البلدان برأس المال والخبراء من أجل هذه الغاية . لقد مضى على المخططين المختصين بعض الوقت وهم يذهبون الى تلك البلدان ويعودون بالخبرة والمعرفة المشتقاتين من بلاد أخرى واناس آخرين . كذلك فان أعدادا متزايدة من طلاب تلك البلدان قدمت الى معاهد أمريكا الشمالية ، ٢٥٫٠٠٠ في ١٩٥٤ الى ١٠٠٫٠٠٠ في ١٩٦٩ في الولايات المتحدة الامريكية) التي تشمل مدارس التخطيط المهنية . فبسبب هذه الظواهر يزداد مجال الاعداد المهني للتخطيط اتساعا ويكتسب حتى طابعا دوليا .

نظام تعليم التخطيط في البلاد النامية :

هنالك نقاط تشابه بارزة في البيئة الاجتماعية ــ الاقتصادية والسياسية في البلاد العربية النامية وبما أن جميع البلاد العربية هي بلاد نامية فقد يكون من الافضل معالجة نظام التعليم هذا على مجال أوسع .

والسبب الاخر الذي يدعونا لدراسة نظام تعليم التخطيط على مجال أوسع هو أن الجامعات العربية تكاد تكون تجاهلت هذا الموضوع الحيوي .

ان عدد مدارس التخطيط التي تعد المختصين في التخطيط قليل جدا أقل من ٣ لمائة مليون نسمة في البلاد النامية مقابل ٤٠ في أمريكا الشمالية و٧٥٫ فقط في العالم العربي . ولقد قامت هذه المدارس القليلة في السنوات الخمس عشرة الماضية بمعدل أخفض بكثير من المطلوب تجاه حركة التحديث المتزايدة . ان هذا يدعو الى قيام جهود فورية لزيادة عدد مدارس التخطيط ، سواء منها الوطنية أو الاقليمية (لتغطي منطقة هامة في العالم) وذلك باسرع من الاتجاهات الحالية .

10/ "The Progress of Urban Renewal in Canada. A Critical Evaluation," **Planning School Study of the University of British Colombia,** Vancouver, Canada, (December 1965), 12-13.

واذا كان تقدير الطلب الفعال لمدارس التخطيط يجب أن يبنى على متطلبات القوى العاملة وطاقة الامتصاص في اقتصاد ما ، فان التقدير الاتي قد يكون ذا مغزى . أن النسبة الحالية ٢ر٦ مدرسة تخطيط لمائة مليون نسمة فى البلاد النامية يقابلها نسبة وسطية قدرها ٢١ مدرسة للبلاد المتطورة . واذا اعتبرنا الرقم الاخير هدفا يجب الوصول اليه ، فمعنى ذلك أن العالم العربي سيكون بحاجة الى ٢٠ مدرسة تخطيط . وبدل الاتجاهات السابقة أن الوصول الى نصف هذا الرقم عبارة عن معجزة (ولكن لا بد أن نؤكد أن الحل المثالي الوحيد لوضع حد لعملية التدهور في المدن العربية اثناء تطورها) ... غير أنه ــ كما قال أوبرلاند ــ يمكن أن نحقق الكثير اذا ما حولت الموارد التي تنفق حاليا فى الخارج لتدريب مواطني البلاد النامية لدعم التخطيط الوطني . (١١)

لقد رسمت الدراسات التجريبية الحديثة صورة قاتمة لما « يعنيه » هجرة الادمغة من البلاد النامية الى البلاد المتطورة . فبالنسبة للمهندسين ، وهم في هذا مثل المخططين الى حد ما ، وجد ساسكيند وشيل أن ٣١٪ من حملة شهادة الماجستير و٦٣٪ من حملة شهادة الدكتوراه من الطلاب الاجانب الذين درسوا فى جامعة كاليفورنيا لم يعودوا الى بلادهم(١٢) . وبغض النظر عن الاسباب التى تدعو هذا العدد الكبير من الطلاب الى الهجره للبلاد المتطورة ، فان استراتيجية التخطيط للبلاد النامية يجب أن تأخذ هذه الظاهرة بعين الاعتبار . وقد يقال بحق أن التدابير الفعالة والواقعية فى تعليم التخطيط فى البلدان النامية من شأنها أن تخفف الى حد كبير من الخسائر الممكنة عن طريق تشجيع الطلاب على الدراسه في بلادهم بكلفة منخفضة . ان الامر يتعلق بالاموال والمواهب والمهارات وهذه لا يمكن تجاهلها بتجاهل فوائد اقامة وزيادة التعليم التخطيطي فى العالم العربي .

وأهم من الزيادة الكمية في مدارس التخطيط هو تحسين نوعية هذا النوع من التعليم فى البلاد النامية . هذا التحسين نقيض فلسفة عامة متكاملة لتعليم التخطيط تكون مبنية بصورة واضحة على حركة التطور العصري . وكما حذر « ويتون » واذا لم يكن تفكيرنا مهتما بعملية التطوير العصري كلها فاننا سنقصر عن بلوغ أية أهداف معقولة في تصورنا . (١٣)

انه لا وجود للحلول الطبيعية البحتة لمشاكل التطوير وان الاتجاهات المعاصرة فى تخطيط التنمية تجعل من المحتم على مدارس التخطيط فى البلاد النامية أن تحول اهتمامها الشديد بنواحي التطور الطبيعية الى النواحي الاجتماعية الاقتصادية من التخطيط المحلي « المستهلك للموارد » الى التخطيط الاقليمي « المنتج للموارد » ومن المهارات الروتينية الى المعرفة المبدعة والطرق المتجددة . هذا الاهتمام والتأكيد عليه من شأنه أن يحقق تبدلات تؤدي الى التطور العصري .

وعندما نفهم الاساس الفلسفي لتعليم التخطيط فان القائمين على أعمال التربية والتعليم والاخصائيين في البلاد النامية ممن يشغلون مراكز قيادية لا بد أن يقوموا بتغييرات ايجابية مثل التغييرات التي سبق ذكرها . وبما أن النظم التعليمية ومتطلبات القوى العاملة والموارد المتوفرة تختلف من بلد الى آخر ، فان وضع صيغة محددة لبنية مدارس التخطيط لجميع البلاد النامية عملية فاشلة وكأننا نقلد برنامجا تعليميا من بلد آخر .

11/ H. Peter Obarlander, "Planning Education for Newly Independent Countries", **Journal of the American Institute of Planners,** 28:2 (May 1962) 116-123.

12/ Charles Susskind and Lynn Schell, **Exporting Technical Education,** (New York: Institute of International Education, 1968), 17.

13/ William L. C. Wheaton, "Planning Education for Development," in **Urban Planning in the Developing Countries,** ed. by John D. Alfred and P. Van Huyck (New York: Fredrick A. Praeger, (1918), 113.

الاختيارات الاربعة :

ان الكاتب يتفق مع قول أوبرلاندر :

« في العقد الاخير جاء الى مدارس التخطيط في أمريكا الشمالية عدد متزايد من الطلاب الاجانب طلبا لتدريب مهني . ويبدو أن تجربة بعض المدارس تشكك في قيمة مثل هذه العملية او صواب تطبيق تعليم التخطيط المطبق في أمريكا الشمالية . على الظروف الثقافية والاجتماعية أو الاقتصادية للبلاد التى نالت اقتصادها حديثا . وبالرغم من مختلف الجهود لتكييف البرامج التعليمية المتوفرة في الجامعات الامريكية مع حاجات الطلاب الاجانب ، فان اقامة برنامج مناسب للتعليم والتدريب « في الوطن لا بد أن يكون أفضل للطلاب وسيكون له نتائج جانبية هامة وطويلة المدى . » (١٤)

لقد أكد ما يزيد عن اثنى عشر مؤتمرا أقيمت في مختلف أنحاء العالم تحت رعاية الامم المتحدة ومنظمة الدول الامريكية واللجنة الكاريبية ومؤتمر الاسكان الافروآسيوي على الحاجة لخبراء في تخطيط التنمية في البلاد النامية . وقد أثارت هذه الاجتماعات بالاضافة الى توضيح دور المخططين وطرق تدريبهم المختلفة ، اهتمام كثير من حكومات البلاد النامية لهذا الموضوع . فقد أدرك المسؤولين الرسميين في هذه البلدان النقص الفادح في الاختصاصيين الذين يستطيعون أن يصيغوا ، او يساعدوهم في صياغة سياسات من شأنها أن تجنى اكثر قدر ممكن من الفوائد الناجمة عن استخدام الموارد النادرة في سياق المدن والاقاليم . فمن اجل تخفيف حدة النقص يتوجب على البلاد النامية أن تدرس وتقيم أربعة طرق للعمل بدرجات متفاوتة :

١ ــ التعاقد مع مستشارين في التخطيط من البلاد المتطورة على أن يكون لديهم المعرفة والادراك اللازمين للتطبيق في البلاد النامية .

٢ ــ ايفاد الطلاب للحصول على شهادات عالية في تلك البلاد المتطورة التي تتيح الفرص أن هذا الحل معقول للبلاد العربية بالنسبة لعدد محدود من الطلاب الذين يرغبون أن يصبحوا أعضاء في هيئات التدريس وباحثين ميدانيين .

٣ ــ ويضاف الى ذلك تاسيس مدارس تخطيط وطنية لتقوم باعداد المخططين . وان هدف الكاتب الرئيسي في هذا البحث هو التأكيد على حاجة البلاد العربية الى هذا الحد الثالث ودعمه .

٤ ــ الجمع بين الطرق الثلاثة السابقة .

ان الاختيار الاول ، استقدام الخبراء الاجانب ، هو الاختيار الوحيد طالما أنه لا يوجد خبراء محليون أو طالما أنه في معظم الاحيان لم تؤسس المدارس المحلية . ولقد كان ولا زال هذا حال البلاد العربية كلها تقريبا وكذلك الحال بالنسبة للبلاد النامية الاخرى حتى أوائل الستينات وفي معظم البلاد حتى الان . غير أن هذا الطريق له سيئاته الكامنة . أن مستشار التخطيط يعين ليخدم فترة تتراوح من بضعة اشهر الى بضعة سنين وليقوم بمهمات محددة . وفي معظم الاحيان تكون المدة قصيرة بحيث لا تسمح له أن يفهم الانظمة غير المألوفة ويسهم بشكل فعال وبعيد المدى .

14/ Oberlander, **Ibid**; footnote (10)

قال أحد المخططين الامريكيين من ذوي الخبرة الدولية الواسعة في تقديم المشورة الفنية « يجب أن نحول المعرفة الفنية الى معرفة عملية منكيفة مع الظروف التي نستخدم فيها » . (١٥) ويشمل هذا على درجة عالية من تعليم المهارة والفن في تقديم المشورة الفنية . ولكن القليل من الخبراء الذين يعينون في البلاد النامية هم الذين يعملون بها . وبالنظر الى أن مدة انتدابهم قصيرة ولا تمكنهم من الحصول على هذه المعرفة الهامة فان مشورتهم قد لا تكون فعالة . هكذا لاحظ الونسورو لوجور :

« ان الصعوبة تكمن في أن الخبير الاجنبي غالبا ما ينقصه ليس المعلومات فحسب بل أيضا المعرفة الهامة التي يصعب الحصول عليها بالظروف المحلية لذا فهو يقوم باعداد مخطط سهل يتقبل بامتنان ويحفظ فورا ... أو أسوأ من ذلك فانه يشوه نتيجة لسوء الفهم والتأكيد على الاشياء الضخمة . (١٦)

ولكن بالرغم من هذه الصعوبة فان المعلومات والافكار الجديدة تتسرب من المستشار الاجنبي للموظفين المحليين والعكس بالعكس . وخلال عملية نقل المعلومات هذه يحصل الطرفان على فوائد هامة في ميدان التخطيط . الا أنه بسبب الكلفة الكبيرة فان البلاد النامية لا تستطيع أن تبقى معتمدة على الخبراء الاجانب لفترة غير محدودة .

أما الخيار الثاني بأن يجري تدريب أبناء البلاد النامية في البلاد المتطورة التي تملك تسهيلات تعليمية متقدمة ، فانه يؤمن بعض الخبراء الدائمين ولكنه غير كاف من جميع الوجوه لعدة أسباب :

أولا : أن نتيجة مثل هذا التدريب في الخارج بطيئة لان على البلد الموفد أن ينتظر عودة مبعوثيه .

ثانيا : أن هذا التدريب اذا لم تموله المساعدات الدولية فانه يبقى باهظ الكلفة .

ثالثا : ان عدد المخططين الذين يرجى اعدادهم في الخارج قليل بالمقارنة مع العدد الكبير من الخبراء اللازمين في المراحل الحاسمة الاولى من تطور بلد ما .

رابعا : قد يختار الكثيرون من موفدي البلاد النامية أن لا يعودوا لاوطانهم .

وأخيرا : وهذا هو أهم الاسباب ، فان التدريب والادوات التي يتلقاها طلبة الدول النامية في البلاد الاخرى غالبا ما تكون غير متناسبة مع الظروف الموضوعية لبيئتهم وذلك بسبب الفوارق الاجتماعية — الثقافية والسياسية — لذا فان أبناء البلاد النامية الذين يعودون من الخارج يجدون صعوبة بالغة في تطبيق ما تعلموه من مهارات على الاوضاع المحلية ويضاف الى ذلك أن كلفة هذه الطريقة ونتائجها الجانبية تجعلها غير واقعية .

لذلك لا بد من حل اقتصادي وبعيد المدى . وهذا يتحقق في الخيار الثالث : تأسيس مدارس وطنية للتخطيط . فمثلا يمكن الاستفادة من الاموال التي تدفع لخبير أجنبي واحد ، أو تستطيع حكومة بلد متوسط الحال من البلدان النامية (الدخل الفردي السنوي ١٠٠ دولار) أن تقدم المعونة المالية لاكثر من ٣٠ طالبا ينخرطون في برنامج تدريبي مدته سنتان . ثم انه يمكن تخريج عدد أكبر من الاخصائيين في التخطيط بكون تدريبهم مرتبطا ارتباطا مباشرا بالظروف المحلية . وهكذا كما يقول أحد المتحمسين لهذا الخيار يحقق هذه الطريقة « اسهاما حيويا في اقامة عملية تخطيط وطنية فعالة وتأمين استمرارها ونموها . » (١٧)

وبالنظر للفوائد الاقتصادية والثمرات التي تجنى في المدى البعيد نتيجة لتأسيس مدارس التخطيط فان البلاد العربية أقل نموا من البلاد النامية بهذا المضمار لان الكثير من البلدان النامية قد قامت بالخطوات اللازمة في هذا المجال . وللاسف انه حتى عام ١٩٧٥ لا يوجد جامعة عربية واحدة تدرس مقررا لتعليم التخطيط بوضع لمواجهة حاجاتها وواقعها .

15/ John Friedman, **Urban and Regional Planning Development in Chile: A Case Study of Innovative Planning;** (Santiago: The Ford Foundation Urban and Regional Development Program in Chile, 1969) 79.

16/ W. Alonso and F. W. Ledger, "Education of Town and Regional Planners in Developing Countries, "**Journal of the American Town Planning Institute**, 31:9 (November 1965) 364.

17/ Oberlander, **Ibid,** footnote (10).

ان التخطيط « عملية مستمرة لتنسيق وتنظيم النشاطات الانسانية بغض النظر عن تنوعها وابعادها . فاذا طرحنا السؤال : من هو المخطط ؟ يكون الجواب واضحا وبسيطا من لا يخطط فلا يوجد مرحلة تنتهي عندها عملية التخطيط وليس له زبون محدد . لذلك اذا ارادت اية جامعة عربية ان تقيم برنامجا لتعليم التخطيط فيجب اجراء دراسة جدية للظروف الاجتماعية والاقتصادية لخلق بيئة تواجه حاجات شعبها وواقعه . ان النظام التعليمي العربي اليوم يحتاج الى التقييم الدقيق لكي يبين اذا كان حقا يعكس حاجات المجتمع أو حتى الحاجات الانسانية الاساسية .

يرى المؤلف أن طالب الجامعة المهتم بالتخطيط كمهنة له يجب عليه أولا أن يحصل على تعليم ليبرالي (واسع) وان يعمل اذا أمكن في مكتب للتخطيط في أوقات الفراغ وفي فترات الصيف تحت الاشراف المباشر لاخصائي ناضج في التخطيط . ان الجمع بين التعليم الاكاديمي والعمل الفعلي يغني التجربتين معا .

يتوجب على الحكومات والجامعات العربية ان توسع تفكيرها المدينّي والاقليمي وهذا التفكير يجب أن يقتصر على المشاكل اليومية لمدننا والسعي لايجاد حلول قصيرة المدى لها مثل استقدام الخبرات الاجنبية لايجاد حلول قصيرة المدى لان هذا النوع من التفكير لا بد أن يفشل اذ أن مشاكل القومية ليست مشاكل ذات طابع مادي فحسب بل هي أيضا ذات طابع اجتماعي واقتصادي وسياسي وجمالي . هذه كلها عوامل تحتاج الى تفكير عميق لايجاد الدواء الناجح على المدى البعيد . أن التخطيط الشامل ، وليس فقط تخطيط المدن « بحد ذاته » سيوجد التوازن المادي والاجتماعي والاقتصادي بين ميادين متشابكة مثل الزراعة والمواصلات ونماذج تطور المدن وتطوير المياه والطاقة والتصنيع والصحة العامة وتلوث الجو والمحافظة على النواحي الجمالية والتاريخية والمناطق الطبيعية . وبالاختصار فان التفكير الاقليمي يوسع ميدان رفاهية الانسان العامة الى أبعد الحدود . ومرة أخرى يؤكد المؤلف على فكرة اقامة مدارس وطنية للتخطيط مع الاستفادة من التجارب الحيوية للبلدان المتطورة . هذا من شأنه أن يقصر الطريق في الوصول الى الهدف وهو اعداد المخططين كميا وكيفيا وذلك لحل المشاكل العديدة التي تصادفها مدننا وأقاليمنا .

ثم أن تخطيط المدن والاقاليم لا يجب أن ينظر اليه كتخطيط مادي . ولقد كان لهذه الفكرة ما يبررها تاريخيا ولكنها لم تعد صالحة في وقت أصبح فيه من الضروري ايجاد التكامل بين المعرفة والتكنيك من أجل المعالجة الفعالة للمشاكل الواسعة التي تحيط بسكان المدن العرب . أن هذا الموقف المادي في التخطيط العربي اليوم لا يكتسب قيمة الا حين يرى من حيث التأثيرات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والفيزيولوجية والجمالية على مختلف المستفيدين من التخطيط . أن هذا الموقف من تعليم تخطيط المدن والاقاليم امر ضروري جدا في عالمنا المتجه نحو التحديث . وأنا بصفتي مخطط مختص يهتم بجعل الحياة المدينية أكثر جمالا وابداعا وعدلا ، بصفتي هذه لا يوجد لدي الا القليل لاقوله . ان واجبنا هو اعداد جيل من المخططين للمستقبل يتجاوزنا في قدرته على رسم حياة المدينة في المستقبل .